الأمداد النورانية وما فيها من أحكام شرعية

للفقير إلى الله: عدنان توفيق ياسين

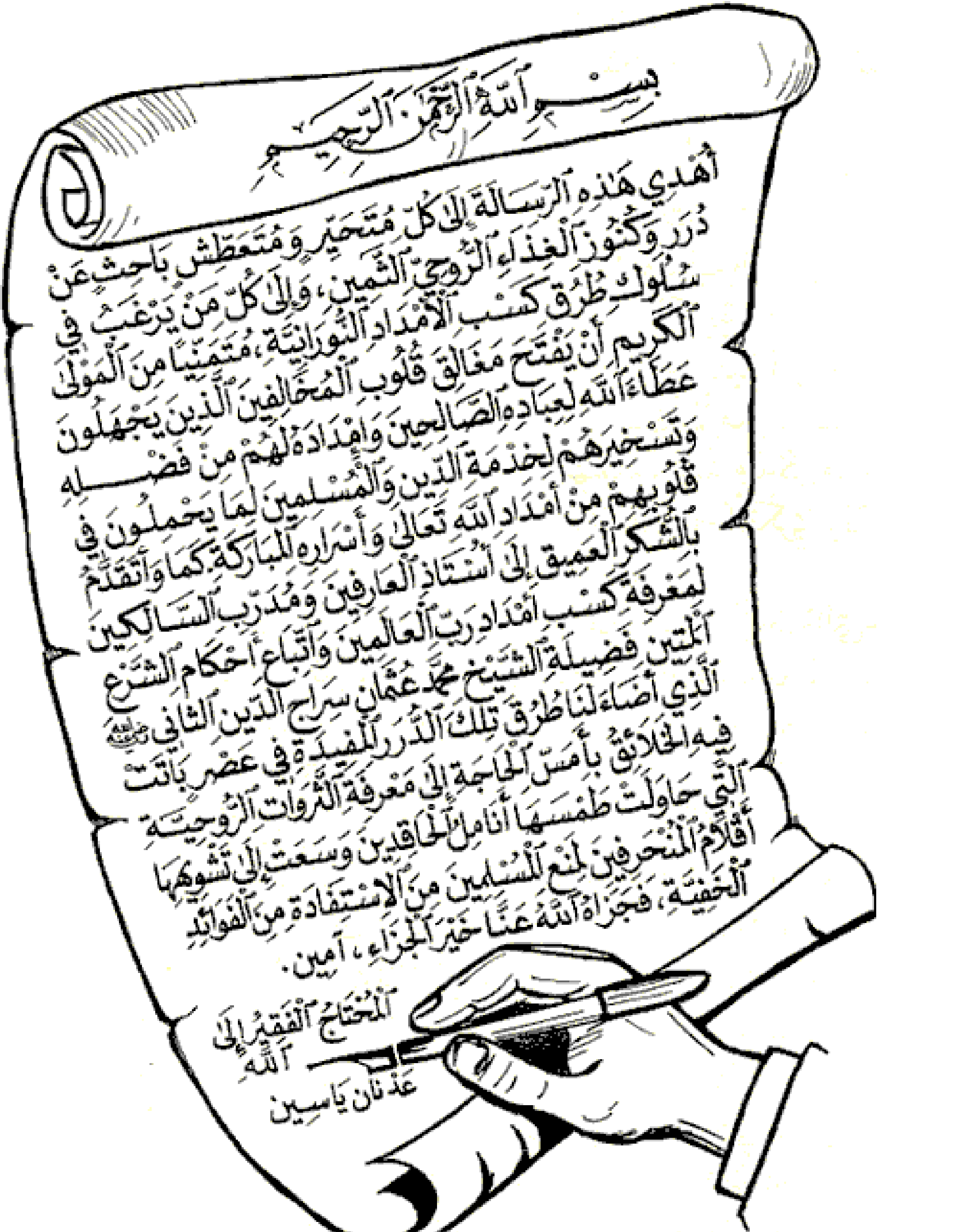

المراقبة والتدقيق
• الأستاذ منير العجوز

تحقيق:
• القاضي الشيخ أحمد الزين •

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي كفى، والصلاة والسلام على النبي المصطفى، وآله وأصحابه أهل الصدق والوفا. أما بعد،

فلقد بتنا نجد أنفسنا في زمان، المسلمون فيه بأمس الحاجة إلى المعونات الروحية والإمدادات النورانية، لا سيما وقد انهارت أفكار أصحاب النظريات المادية، فأصبح الناس ينتظرون بشغف ولهف البديل الذي يؤمن لهم حياة سعيدة بعيدة عن الأجواء المادية والهموم الفكرية. ولما كان الدين الإسلامي غنيًا بالأمور الروحانية والنورانية، ومفاهيمه واقعية تعالج جميع الأحوال، ويمكن دوام العمل بها في شتى الأزمان، رأينا من الضروري أن نعرض للقارئ موضوعًا مهمًا يستفيد منه كل من كان يعيش تحت هاجس الأفكار المادية، ليشعر بالارتياح الفكري والاطمئنان القلبي يملآن الفراغ الروحي الذي كان يشعر به.

فالإنسان لا بد أن يكون له ارتباط كامل مع العوالم الروحية التي خلقها الله سبحانه لتؤمن له السعادة في الحياة الدنيوية وتوصله إلى مدارج الإحسان، فينال رضى وعطف الرحمن. وفي هذه الرسالة نعالج بعون الله موضوعًا واحدًا، بقدر الإمكان، يشغل بال كثير من الذين انهاروا فكريًا وباتوا حيارى، وكثير من الذين لا يعرفون ماهية الإسلام وكيفية معالجته للأمور وعطاءه الدائم للسائرين على نهجه المقدس، وهو المدد واستحباب الاستمداد من حضرات الأنبياء والأولياء. نحاول عرضه مع أدلته من آيات الذكر الحكيم وأحاديث سيد المرسلين ﷺ، ليعلم المؤمنون على اختلاف درجاتهم بأن هنالك دائمًا إمدادات ومعونات روحية تكلؤهم وتحفظهم بإذن الله، والكل في الحقيقة تحت كنف الله ورعايته سبحانه، مهما كانت الأسباب والمسببات. ومما كان يردده كثيرًا المربي الروحي الكبير حضرة الشيخ محمد عثمان سراج الدين رضي الله عنه ما معناه: "لا تغرز بلا إرادة الله تعالى شوكة واحدة، ولا يقطع بلا مشيئة الله تعالى خيط رفيع". والله ولي التوفيق.

مَعْنَى كَلِمَةِ مَـدَد

يَخْتَلِفُ مَعْنَى كَلِمَةِ مَدَدٍ بِاخْتِلَافِ نِيَّةِ قَائِلِهَا وَمَقْصُودِهِ الْقَلْبِيِّ وَسَبَبِ قَوْلِهَا.

فَقَدْ وَرَدَ فِي "لِسَانِ الْعَرَبِ" عَنْ مَعْنَى كَلِمَةِ مَدَدٍ: "مَدَدْنَا الْقَوْمَ"، أَيْ: صِرْنَا لَهُمْ أَنْصَارًا وَمَدَدًا". فَإِذَا قَالَ الْمُسْلِمُ: "مَدَد يَا اللَّه"، أَيْ: أَعِنِّي وَأَمِدَّنِي مِنْ رَحْمَتِكَ وَانْصُرْنِي عَلَى أَعْدَائِكَ، وَزَوِّدْنِي بِالرَّحَمَاتِ وَالْبَرَكَاتِ، وَأَمِدَّنِي بِالْمَقْدِرَةِ عَلَى طَاعَتِكَ وَمُحَارَبَةِ نَفْسِي وَالشَّيْطَانِ بِمَعُونَةِ مَدَدِكَ.

وَأَمَّا إِذَا قَالَ: "مَدَد يَا أَوْلِيَاءَ اللَّه"، فَمَعْنَاهُ: عَلِّمُونَا مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ، وَأَمِدُّونَا مِمَّا أَمَدَّكُمُ اللَّهُ بِهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْعُلُومِ وَالْعِرْفَانِ، وَسَاعِدُونَا بِمَا يَنْفَعُنَا لِسَيْرِنَا، وَأَرْشِدُونَا فِي سُلُوكِنَا إِلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ بِإِذْنِ اللَّهِ.

وَمَا كَانَ هَذَا إِلَّا لِأَنَّ أَكْثَرَ الْعِبَادِ لَا يَعْرِفُونَ كَيْفِيَّةَ كَسْبِ الْمَدَدِ مِنْ رَبِّهِمْ لِأَنَّهُمْ فَقَدُوا مَنْ يُدَرِّبُهُمْ وَيُؤَدِّبُهُمْ بِالْإِسْلَامِ، وَبِأَخْلَاقِ سَيِّدِ الْأَنَامِ ﷺ، فَلِذَلِكَ فَإِنَّهُمْ بِحَاجَةٍ إِلَى مَنْ يُعِينُهُمْ وَيُمِدُّهُمْ بِالْعِلْمِ، وَيُعَلِّمُهُمْ أَدَبَ طَرِيقَةِ السَّيْرِ وَالسُّلُوكِ، فَيُصْبِحُونَ بَعْدَهَا مِمَّنْ لَهُمُ الْمَعْرِفَةُ لِكَسْبِ الْأَمْدَادِ مِنْ رَبِّهِمْ.

وَالْمَدَدُ بِالْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مَوْجُودٌ حِسًّا وَمَعْنًى فِي حَيَاتِنَا، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُنْكِرَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَعِينُ بِالطَّائِرَةِ وَالْبَاخِرَةِ وَالسَّيَّارَةِ وَالْقِطَارِ لِقَضَاءِ الْحَوَائِجِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْانْتِقَالِ بِوَاسِطَتِهَا مِنْ بَلَدٍ إِلَى آخَرَ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ بِدُونِهَا إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ. هَذَا وَإِنَّ الطَّيَّارِينَ وَالْبَحَّارَةَ يَسْتَدِلُّونَ عَلَى وِجْهَةِ سَفَرِهِمْ جَوًّا وَبَحْرًا بِوَاسِطَةِ قِطْعَةٍ مَعْدَنِيَّةٍ يُقَالُ لَهَا "بُوصَلَة" تُرْشِدُهُمْ إِلَى الْجِهَةِ الْمَطْلُوبَةِ. وَلَا يُنْكِرُ ذَلِكَ إِلَّا جَاهِلٌ. فَهَلِ الْاسْتِعَانَةُ بِالْمَعْدَنِ تُخْرِجُ عَنِ الْمِلَّةِ؟ وَهَلْ يَرْفُضُ عَاقِلٌ مُسَاعَدَةً ثَمِينَةً يُقَدِّمُهَا إِلَيْهِ مَنْ لَهُ خِبْرَةٌ فِي سُلُوكِ طَرِيقِ مَحَبَّةِ اللَّهِ الْمَحْفُوفَةِ بِشَتَّى أَنْوَاعِ الْمَخَاطِرِ، لَيْسَ أَقَلَّ الْأَعْدَاءِ فِيهَا: النَّفْسُ وَالشَّيْطَانُ وَالْهَوَى، بِحَيْثُ يَصِلُ مِنْ خِلَالِ ذَلِكَ الْمَدَدِ وَتِلْكَ الْمُسَاعَدَةِ بِلَا مَشَقَّةٍ وَلَا تَعَبٍ ...؟

مِنْ هُنَا يَظْهَرُ لَنَا أَنَّ الْإِنْسَانَ بِحَاجَةٍ إِلَى الْاسْتِعَانَةِ بِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ لِمَدِّهِ بِمَدَدٍ قَدْ سَخَّرَهُ اللَّهُ لَهُ عَلَى أَيْدِي خَلْقِهِ وَمَصْنُوعَاتِهِمْ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ كَانَتْ

الفرق بين مدد الخالق والمخلوق

إن الإنسان ينال العلوم الشرعية المباركة بفروعها المتنوعة، بكسبه ومجاهداته بفضل الله تعالى وإحسانه وإمداداته المباركة. وبطاعته لربه وإقامة حدوده، والإخلاص في الحفاظ على شعائر دينه، ينال البركات والرحمات والأمداد من الله تعالى. ويأتي الطالب ويسعى لكسب العلم الشريف مستعينا بمن هو قبله، مستمدا منه مما أفاضه الله عليه من العلوم والسير والأخلاق والآداب والتشريع. فاستعانة الناس بعضهم ببعض من الأمور التي لا مفر منها ولا غنى عنها، والإنسان مأمور بها، لاسيما في أمور البر والتقوى. فقد قال الله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ المائدة... فالتعاون بين الخلائق هو المدد، أي المساعدة ونصرة بعضهم لبعض، كأن يطلب رئيس دولة من دولة أخرى المدد بالعتاد والمساعدة لنصرته. فكلمة مدد، إذا، تأتي بمعنى المساعدة والمعاونة، وهي مستحبة في كل أنواع البر، بجميع الطرق التي أجازها الشرع الحنيف. فلو طلب الإنسان من بني جنسه الأمداد، فليس بمعنى أنه يطلب منه كما يطلب من ربه، فقد يكون طلبه لاكتساب العلم، أو نيل مساعدة، أو تلقي تدريب، أو تعلم حرفة، أو ارشاد في شيء من أمور السلوك... ولإزالة الشبهة في هذا الموضوع الدقيق، نقول لطالبي الحقيقة: الإمداد بالمعنى الذي نتحدث عنه على قسمين:

• **القسم الأول** • هو مدد صرف من الله سبحانه، وهو ما لا يتم على الحقيقة إلا منه، ولا تكون الإغاثة للخلق إلا به سبحانه، كالأمور والأفعال المختصة بالله تعالى، كالإحياء والإماتة والخلق والبعث، وغير ذلك من الأمور... قال الله تعالى ﴿كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا﴾ الإسراء ٢٠. والمعنى كما قال الإمام الشوكاني رحمه الله: "نزيده من عطائنا على تلاحق من غير انقطاع، نرزق المؤمنين والكفار وأهل الطاعة وأهل المعصية". فتح القدير

• القسم الثاني • وهو ما يجريه الله سبحانه على يد الملائكة الكرام بما آتاهم الله من القوة والأسرار، وعلى يد حضرات الأنبياء عليهم السلام بواسطة المعجزات، وعلى يد حضرات الأولياء رضي الله عنهم من طريق الكرامات، ومنكر الكرامة حسود منبوذ كلامه. والأمثلة على ذلك كثيرة جداً.

فطلب المدد من الله تعالى يختلف عن طلب المدد من الأنبياء والأولياء. فهو من الله يكون طلب الرحمة والمغفرة والشفاء والثبات على الدين والإيمان وطلب الرزق والإعانة والإغاثة الربانية.

وأما طلب المدد من الأنبياء والأولياء، فيجب أن يكون ضمن الآداب الشرعية التي لا تخرج عن إطار قواعد التنزيه والعبودية، كطلب المزيد من علوم الظاهر والباطن التي أمدهم الله بها، والإرشاد إلى ما فيه صلاح الدين والدنيا، وتدريبهم على طريق النجاة من سخط الله وغضبه وذلك بواسطة ما أودع الله في صدورهم المباركة من علوم وأسرار وبركات يعالجون بها الطالبين. فالفرق إذاً بين إمداد الله تعالى للناس وإمداد الأنبياء والأولياء لهم، واضح ظاهر. فالله سبحانه يمد من يشاء من عباده، من خزائن فضله ورحمته بالمعونة والإغاثة والنصرة على الكفار والمشركين، متى شاء وكيفما شاء، ولا يتوقف عطاؤه تعالى على إذن أحد أو رضاه.

وأما حضرات الأنبياء والأولياء، فلا يكون إمدادهم للطالبين إلا بإذن الله ومشيئته ورضاه، وهو بالحقيقة مستمد من أمداد الله تعالى. ومثل ذلك كمثل الجندي الذي يطلب من قائده أن يمده بالجنود والسلاح لكي يتمكن من الانتصار على الأعداء. فقد حكى الإمام اللحياني في تفسير كلمة مدد: "أمد الأمير جنده بالخيل والرجال وأعانهم وأمدهم بمال كثير وأغاثهم"... والمدد: العساكر التي تلحق بالمغازي في سبيل الله. والإمداد: أن يرسل الرجل للرجل مدداً" ـ لسان العرب، مادة م د د ـ

وقال الإمام الفيومي رحمه الله: "أمددته بمدد، أعنته وقويته به".

ـ المصباح المنير، مادة م د د ـ. فكما أن الرجال عديدهم وعتادهم، مجندون لخدمة البلاد والحفاظ على سلامة العباد، فكذلك ما عند الولي من الإمداد المعنوي إنما هو مما أعطاه الله من أسرار ليقوم بواسطتها لخدمة ومساعدة المسلمين في جميع ما يرضي الله تعالى ويخدم دينه.

بعض الأمثلة عن مدد حضرات الملائكة الكرام

من حكمة الله تعالى أن جعل في هذه الدنيا ملائكة لهم وظائف وأعمال ظاهرية وباطنية يخدمون بها خلق الله تعالى، بما لديهم من أمداد وعلوم نورانية:

قال الإمام الرازي رحمه الله في معرض تفسيره للآية الكريمة ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ ـ المعارج ٣ ـ : "وعندي فيه وجه رابع: وهو، أن هذه السموات كما أنها متفاوتة في الارتفاع والانخفاض، والكبر والصغر، فكذا الأرواح الملكية مختلفة في القوة (أي تنوع قدرات الكمال)...، وكثرة المعارف الإلهية وقوتها، وشدة القوة على تدبير هذا العالم (أي بحسب أمر الله تعالى لها)، ولعل نور إنعام الله وأثر فيض رحمته لا يصل إلى هذا العالم إلا بواسطة تلك الأرواح، إما على سبيل العادة أو لا". تفسير الفخر الرازي، ٣٠/١٢٢ـ وقال رحمه الله في تفسير قول الله تعالى ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ ـ الصافات ١٦٤ـ: "وهذا يدل على أن لكل واحد منهم مرتبة لا يتجاوزها، ودرجة لا يتعدى عنها، وتلك الدرجات إشارة إلى درجاتهم في التصرف في أجسام هذا العالم". ـ تفسير الفخر الرازي، ٢٦/١٧١ـ

ففي القرآن الكريم آيات ترجع بعض الأعمال لله سبحانه، وتأتي آيات أخرى لترجع نفس هذه الأعمال للملائكة الكرام، تسخيراً منه سبحانه. وفيما يلي نورد بعض الأمثلة على ذلك.

توفي الأنفس

قال الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ -النحل ٧٠- فالتوفي في هذه الآية راجع لله تعالى. وفي آية أخرى ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ -السجدة ١١- فهل يقدر أحد على الإنكار بأن ملك الموت أعطاه الله من المقدرة ما يجعله يأخذ أرواح الناس؟ ... فالتوفي راجع في هذه الآية لملك الموت بأمر الله وإذنه سبحانه.

الحفظ

قال الله تعالى: ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ -يوسف-

وقال سبحانه: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ -الرعد ١١- فمرة جعل الحفظ لله تعالى ومرة جعل للملائكة بأمر الله وتسخير منه. وعلى هذا فإن الله تعالى قد أمد الملائكة بأسرار يحفظون بها عباد الله بتسخير منه عز وجل. فهو فعال لما يريد، والمعترض على ذلك فهو ساقط الاعتبار.

كتابة الأعمال

إن الله سبحانه بكل شيء عليم وهو القائل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ -يس ١٢-

قال الإمام الطبري رحمه الله: أي، ونكتب ما قدموا في الدنيا من خير وشر، ومن صالح الأعمال وسيئها". -صفوة التفاسير ٣/٢- وقال تعالى ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ -ق ١٨- فالملائكة عندها المقدرة لمعرفة وكتابة أفعال العباد بتسخير وعلم منه سبحانه، وغير ذلك من الأمثلة كثير، وهو سبحانه الذي قال في حق ملائكته: ﴿ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا

يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ التحريم ٦. فَجَمِيعُ هَؤُلَاءِ ٱلْمَلَائِكَةِ ٱلْكِرَامِ مَهْمَا ظَهَرَ مِنْهُمْ مِنْ عَجَائِبَ وَغَرَائِبَ وَأَعْمَالٍ. فَهُمْ مُسَخَّرُونَ بِأَمْرِ ٱللهِ، لَا يُنْكِرُ ذَلِكَ إِلَّا جَاهِلٌ عَدِيمُ ٱلْمَعْرِفَةِ.

مَدَدُ حَضَرَاتِ ٱلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ

وَقَدْ جَعَلَ ٱللهُ لِخَلْقِهِ مِنَ ٱلْبَشَرِ، كَمَا جَعَلَ لِلْمَلَائِكَةِ ٱلْكِرَامِ عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وَظَائِفَ ظَاهِرِيَّةً وَبَاطِنِيَّةً، وَزَوَّدَهُمْ بِإِمْدَادَاتٍ وَقُدُرَاتٍ نُورَانِيَّةٍ. فَقَدْ أَفَاضَ ٱللهُ تَعَالَى عَلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ وَأَوْلِيَائِهِ بَعْضَ ٱلْعُلُومِ وَٱلْأَسْرَارِ ٱلَّتِي بِوَاسِطَتِهَا يُدَافِعُونَ عَنْ دِينِ ٱللهِ تَعَالَى، وَيَطَّلِعُونَ بِهَا عَلَى مَا شَاءَ ٱللهُ لَهُمْ لِلْحِفَاظِ عَلَى ٱلْمَصْلَحَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ، وَيُمِدُّونَ بِتِلْكَ ٱلْأَسْرَارِ وَٱلْعُلُومِ ٱلرَّبَّانِيَّةِ مَنْ شَاءَ لَهُمُ ٱللهُ ذَلِكَ، وَبِرِضَائِهِ سُبْحَانَهُ.

قَالَ ٱلْإِمَامُ ٱلْبَيْهَقِيُّ رَحِمَهُ ٱللهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ ٱللهِ تَعَالَى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ البقرة ٢٥٥: "لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ أَنْ يُعَلِّمَهُمْ إِيَّاهُ بِتَعْلِيمِهِ". - الأسماء والصفات، البيهقي ١٤٣ -.

وَقَالَ ٱلْإِمَامُ ٱلْبَغَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ ٱللهِ تَعَالَى فِي حَقِّ حَضْرَةِ ٱلْخَضِرِ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ الكهف ٦٥: "عِلْمَ ٱلْبَاطِنِ إِلْهَامًا". - معالم التنزيل في التفسير والتأويل، ٣/ ٥٨٩ -.

وَمِنَ ٱلْمَعْلُومِ أَنَّ حَضَرَاتِ ٱلْأَنْبِيَاءِ أَرْفَعُ دَرَجَةً عِنْدَ ٱللهِ مِنْ حَضَرَاتِ ٱلْمَلَائِكَةِ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ لِحَضَرَاتِ ٱلْأَنْبِيَاءِ ٱلْمَقْدِرَةُ عَلَى حَمْلِ أَسْرَارٍ أَعْظَمَ مِنَ ٱلْأَسْرَارِ ٱلَّتِي تَحْمِلُهَا حَضَرَاتُ ٱلْمَلَائِكَةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ ٱلْأَرْفَعَ قَدْرًا وَمَقَامًا يَكُونُ أَرْفَعَ قُرْبًا وَأَكْثَرَ عَطَاءً وَقُوَّةً. فَمَنْ عَلَّمَهُ ٱللهُ مِنْ لَدُنْهُ فَبِذَلِكَ ٱلْعِلْمِ ٱلْمُسْتَمَدِّ مِنْهُ سُبْحَانَهُ يَفْعَلُ ٱلْعَجَائِبَ وَٱلْغَرَائِبَ، وَتَظْهَرُ مِنْهُ قُدُرَاتٌ يَسْتَفِيدُ مِنْهَا ٱلنَّاسُ بِإِذْنِ ٱللهِ. وَفِيمَا يَلِي نَعْرِضُ بَعْضَ ٱلْأَمْثِلَةِ.

تصريف الرياح

قال الله تعالى: ﴿ وهو الذي يرسل الريح بشرا بين يدي رحمته ﴾ - الأعراف ٥٧ - وقال سبحانه: ﴿ ولسليمن الريح عاصفة تجري بأمره ﴾ - الأنبياء ٨١ - . وفي هذه الآية دلالة صريحة على أن الله تعالى يعطي أنبياءه أسرارا يعملون بها ما يريده الله منهم عليهم السلام، لا لاحتياجه سبحانه لهم، ولكن لحكمة الله أعلم بها، وليعلم العباد عظيم قدر أنبيائه ورسله، واصطفائه سبحانه لهم. ومن كانت الرياح تجري بأمره تسخيرا من الله لو سلطها على الجبال لقلبت الصخور، ولو أرسلها على مدينة لدمرتها تدميرا بإذن الله تعالى

الخلق

قال الله تعالى ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾ - الفرقان -

وقال الله في حق حضرة عيسى عليه السلام ﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني ﴾ - المائدة ١١٠ -

شفاء المرضى

قال الله تعالى: ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ - الشعراء ٨٠ - وقال سبحانه في حق حضرة عيسى عليه السلام ﴿ وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني ﴾ - المائدة ١١٠ -

إحياء الموتى

قال الله تعالى ﴿ فالله هو الولي وهو يحي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴾

وقال سبحانه في حق حضرة عيسى عليه السلام ﴿ وإذ تخرج الموتى بإذني ﴾ - المائدة ١١٠ - وعلى هذا، فأي شيء يريد الله أن يجريه على أيدي عباده، فيكون بإذنه، من إحياء وإماتة وإمداد، لأنها في الحقيقة منه

سُبحانه. وهُنا نقول:
إنَّ الإذنَ الربّانيَّ هُو عبارةٌ عن سرٍّ يقذفُهُ اللهُ في قلوبِ أنبيائه عليهم السلام فيعملون ما يُرضي الله سُبحانه بمشيئة الله تعالى وقضائه وقدره. فسيّدُنا عيسى عليه السلام قد أجرى اللهُ على يديه تلك المعجزاتِ تسخيرًا منهُ وبإذنه، وهي في الحقيقة أعظمُ من كلمة مددٍ في دلالتها. وقد قال اللهُ في حق حضرة نوح عليه السلام ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ ـ هود ٤٨ ـ أي: وخيراتٍ عظيمةٍ عليك وعلى ذريّةٍ من معك من أهل السفينة. ـ صفوة التفاسير ـ
فنقول: إنّ هذه الخيراتِ والبركاتِ التي أعطاها اللهُ تعالى لحضرة نوح عليه السلام لا بُدَّ أن يستفيدَ بها من حوله من المؤمنين. فهذه الاستفادةُ، ولو جرت على يديه فإنها في الحقيقة من الله تعالى. وكذلك من يُفيضُ اللهُ عليه من البركات، فصُحبتُهُ تعكسُ تلك البركاتِ والخيراتِ على جليسه، كما قال صلى الله عليه وسلم ﴿مثلُ الجليسِ الصالحِ والجليسِ السوءِ كمثلِ صاحبِ المسكِ وكيرِ الحدّادِ، لا يعدمُكَ من صاحبِ المسكِ، إمّا أن تشتريَهُ أو تجدَ ريحَهُ، وكيرُ الحدّادِ يُحرقُ بيتَكَ، أو ثوبَكَ أو تجدُ منهُ ريحًا خبيثًا﴾ ـ رواه البخاري، الفتح الكبير، ج٣ ص ١٢٨ ـ

مددُ حضرةِ المصطفى صلى الله عليه وسلم

ومن المعلوم في الشريعة الغرّاء أنّ سيّدنا محمّدًا صلى الله عليه وآله وسلم هو أرقى من جميع حضرات الأنبياء والمرسلين والملائكة المقرّبين، وبهذا يكون المددُ المباركُ المعطى له من الله سبحانه أرقى وأعظم من جميع الأمداد من سائر الخلق. وقد أثنى اللهُ عليه بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ـ الأنبياء ١٠٧ ـ
قال أحدُ الزاهدين ﴿إنّ الإمدادَ الذي يُفيضُهُ اللهُ على أنبيائه، هو كالأمانة المستعارة عندهم ليعملوا بواسطتها لهداية الخلق إلى طاعة ربهم، ألم يقل اللهُ في حقِّ نبيّه صلى الله عليه وسلم ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

وقال أيضاً في حقه ﷺ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ـ التوبة١٢٨ـ

فما دام حضرة النبي ﷺ حاملاً الرحمة الإلهية للعالمين، فهذا يعني أنه يمدّ الخلق بإذن الله بإمداد الرحمة والرأفة التي أعطاه إياها مولاه سبحانه. ومما قال أيضاً في حقه ﷺ ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ ـ التوبة ٤٠ـ

قال أبو زميل: "فحدثني ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم (وحيزوم فرس حضرة جبريل عليه السلام) فنظر إلى المشرك أمامه فخرّ مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط، فاخضرّ ذلك أجمع. فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: "ذلك من مدد السماء الثالثة" ـ عيون الأثرـ.

فكما أن الله سبحانه أيّد رسوله ﷺ بجنود لم يروها، فقد أيّده أيضاً بإمدادات لن يذوقها أو يراها منكر العطاء الإلهي لخواص خلقه. وقال الله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ـ الجمعة٢ـ. فهو ﷺ الذي استطاع بفضل الله وبواسطة عطاء الله له تزكية من اتبعه وأطاعه. فأصلح من كانوا أشرس الناس في الجاهلية وأفظعهم قتلاً وكفراً، فأصبحوا بعدها ألطف الناس وأحسنهم أخلاقاً وديناً وإيماناً، ونالوا شرف لقب: صحابة رسول الله ﷺ، وكانوا بذلك هم المفلحون. قال الله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ـ الأعراف ١٥٧ـ.

فالآية الكريمة واضحة في كلمة "ويزكيهم"، فإن الله أعطاه المقدرة والأمداد ليرشد الخلق إلى كيفية العمل للوصول إلى أمور التزكية. فمن شاء الله أن يزكيه يقتبس من أخلاقه العظيمة الخيرة ليصبح ممن أفلح، لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ـ الشمس٩ـ. وقال الله تعالى: ﴿قَدْ

جَاءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ ـ المائدة ١٥ ـ. وَالنُّورُ هُوَ الْمَدَدُ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، فَحَضْرَةُ النَّبِيِّ ﷺ يَحْمِلُ فِي صَدْرِهِ الْمُبَارَكِ مَدَدًا نُورَانِيًّا، وَقَدْ جَعَلَهُ اللهُ مَدَارًا لِلْإِمْدَادِ يُمِدُّ مَنْ آمَنَ مِنَ الْعِبَادِ، وَوَاسِطَةً لِتَلَقِّي الرَّحَمَاتِ وَالْبَرَكَاتِ. وَذَٰلِكَ لِأَنَّ غَيْرَ الْأَنْبِيَاءِ لَيْسَ لَهُمُ الْمَقْدِرَةُ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِمْ عَلَىٰ الْاِسْتِمْدَادِ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، فَإِنْ كَمُلَ إِيمَانُهُمْ وَتَكَمَّلُوا بِالْإِخْلَاصِ، وَأَصْبَحُوا ذَوِي قُدُرَاتٍ نُورَانِيَّةٍ يَتَحَمَّلُونَ بِوَاسِطَتِهَا الْإِمْدَادَ الْإِلَٰهِيَّ. يَتَلَقَّوْنَ عِنْدَهَا الْفُيُوضَاتِ مِمَّنْ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ. وَلَكِنَّ وُجُودَ الْعِلَلِ وَالْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ وَالْغَفَلَاتِ، تَحْجُبُ الْعَبْدَ عَنْ كَسْبِ الْفَوَائِدِ الْمَعْنَوِيَّةِ، وَهِيَ مَانِعَةٌ أَيْضًا مِنْ تَمْكِينِ الْعَبْدِ مِنَ الْعَمَلِ مُبَاشَرَةً لِجَلْبِ الْأَمْدَادِ مِنَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ، لِأَنَّ التَّخَلُّصَ مِنْ هَٰذِهِ الْأُمُورِ يُرَادُ لَهَا عِلَاجَاتٌ خَاصَّةٌ. وَقَدْ وَرَدَ فِي حَاشِيَةِ تَفْسِيرِ الْقَاضِي الْبَيْضَاوِيِّ، فِي مَعْرِضِ تَفْسِيرِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ـ البقرة ٣٠ ـ مَا يُؤَكِّدُ صِحَّةَ مَا نَقُولُ، حَيْثُ جَاءَ: «... إِنَّ اسْتِخْلَافَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَيْسَ مَبْنِيًّا عَلَىٰ الْعَجْزِ وَالْاِحْتِيَاجِ، تَعَالَىٰ اللهُ عَنْ ذَٰلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا، بَلْ هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ قُصُورِ الْمُسْتَخْلَفِ عَلَيْهِ ... فَمُعَامَلَتُهُ تَعَالَىٰ فِي إِفَاضَةِ الْكَمَالَاتِ وَالْمَعَارِفِ عَلَىٰ خَلْقِهِ إِنَّمَا هِيَ بِحَسَبِ اسْتِعْدَادَاتِهِمْ، فَمَنْ كَانَ مُسْتَعِدًّا لِاسْتِفَاضَتِهَا بِلَا وَسَطٍ (أَيْ وَاسِطَةٍ) يُفِيضُ عَلَيْهِ بِنَفْسِهِ بِلَا وَاسِطَةِ مَلَكٍ، وَمَنْ كَانَ لَا يَقْبَلُهَا إِلَّا مِمَّنْ كَانَ مِنْ جِنْسِهِ، يُفِيضُ عَلَيْهِ بِوَاسِطَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لِكَوْنِ قُوَّتِهِمُ النَّظَرِيَّةِ فَائِقَةً عَلَىٰ قُوَىٰ سَائِرِ الْأَنَامِ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُمْ يَتَمَكَّنُونَ بِقُوَاهُمْ عَلَىٰ اسْتِنْبَاطِ أَنْوَارِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُمْ أُعْطُوا مِصْبَاحَ الْبَصِيرَةِ الْمُودَعِ فِي زُجَاجَةِ الْقَلْبِ الْكَائِنَةِ فِي مِشْكَاةِ الْجَسَدِ الْمُوقَدَةِ تِلْكَ الزُّجَاجَةُ مِنْ زَيْتِ الرُّوحِ الصَّافِيَةِ عَنِ الْكُدُورَاتِ بِحَيْثُ يَكَادُ زَيْتُهَا لِغَايَةِ صَفَائِهِ يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ» ـ حاشية تفسير القاضي البيضاوي ـ.

وَالْعِلَاجَاتُ عَلَىٰ نَوْعَيْنِ: مِنْهَا مَا هُوَ ظَاهِرٌ، وَمِنْهَا مَا هُوَ بَاطِنٌ. وَالْعِلَاجَاتُ الْبَاطِنِيَّةُ، أَيِ الْقَلْبِيَّةُ، هِيَ مِنِ اخْتِصَاصِ وَرَثَةِ حَضَرَاتِ الْأَنْبِيَاءِ

عليهم السلام، وهم من كمل إيمانهم من حضرات الأولياء رضي الله عنهم. وقد حض الله المؤمنين على مصاحبة هؤلاء الرجال والاستفادة مما أعطاهم الله من فضله وإمداده، والاقتداء بهم للوصول إلى ما وصلوا إليه وتجهيزهم وتعريفهم وتدريبهم على السلوك لكسب الأمداد مباشرة. قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ التوبة ١١٩. فالمدد، إذا، هو النور الرباني الذي يفيضه الله على قلوب أنبيائه وأوليائه من الرحمات والبركات والأسرار، فبالصحبة تنعكس هذه الفوائد النورانية كالمرآة من قلوب حاملي الأمداد النورانية إلى قلوب الطالبين المستمدين بإذن الله وعونه سبحانه. وهذا في حق حضرات الأولياء رضي الله عنهم، كما قلنا، من باب الكرامة التي خصهم الله بها. وإمدادهم للطالبين كمثل مساعدة الناس بعضهم بعضا في شتى الأمور الحياتية والمعيشية، وليس في ذلك ما يخالف الإسلام الحنيف. فقد جاء بالحديث الشريف عن عتبة بن غزوان أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ إذا أضل أحدكم شيئا أو أراد غوثا وهو بأرض ليس بها أنيس، فليقل: يا عباد الله أغيثوني يا عباد الله أغيثوني. فإن لله تعالى عبادا لا يراهم ﴾ رواه الطبراني الفتح الكبير ٤٦٩. والإغاثة هنا ليست كإغاثة الله لخلقه، إنما هي تعليم وتعريف وإرشاد ومساعدة بإذن الله وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿ إذا انفلتت دابة أحدكم في أرض فلاة (أي صحراء واسعة) فليناد: يا عباد الله احبسوا علي دابتي، فإن لله في الأرض حاضرا (أي عبادا لا يراهم الناس عادة وظفهم الله لخدمة المؤمنين) سيحبسه عليكم ﴾ رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، الفتح الكبير ٨٩٨. وفي هذين الحديثين دلالة على أن الله سبحانه قد خص عبادا بأسرار وإمدادات ليخدموا بها المؤمنين مهما كان بين الداعي والمجيب من مسافات شاسعة، وذلك كله بأمر الله تعالى. وفي هذين الحديثين أيضا حجة ورد على من يقول: لا يجوز طلب المدد من عباد الله، فقد صرح هذان الحديثان بجواز قول:

"يا عِبادَ اللهِ أغيثوني". وفيهما أيضاً دليلٌ على إمكانيةِ طلبِ المددِ من الصالحين، ولو كانوا في المشرقِ وكان الطالبُ في المغرب. ولعلّ ما حصل مع حضرةِ سليمانَ عليه السلام من استعانتِه بالرجلِ الصالحِ آصف بن برخيا رضي الله عنه لإحضارِ عرشِ بلقيس، خيرُ دليلٍ على اختصاصِ اللهِ عبادَه الصالحين بالأسرارِ والقدراتِ النورانية. فاطّلع يا أخي المؤمن على القصةِ في القرآنِ الكريم، فيظهر لك بوضوحٍ أنّ الله سبحانه يمدُّ أنبياءه وأولياءه بقدراتٍ خارقة.

ثم هل يُعقل أنّ إماماً جليلاً كحضرةِ الإمامِ أحمد بن حنبل رضي الله عنه قد جهل ما يجوزُ وما لا يجوزُ للمؤمنِ فعلُه، وهو رضي الله عنه القائل: "حججتُ خمسَ حججٍ فضللتُ (أي أضعتُ الطريق)، وكنتُ ماشياً، فجعلتُ أقولُ: يا عبادَ اللهِ دلّونا على الطريقِ، فلم أزل أقولُ ذلك حتى وقفتُ على الطريق". رواه ابن مفلح الحنبلي في كتاب الآداب الشرعية. وإذا اطّلعنا على حياةِ حضراتِ الصحابةِ الكرام نجدُ فيضاً من هذه الأحوالِ النورانيةِ الراقية، نذكرُ منها على سبيلِ المثالِ وليس على سبيلِ الحصر، الخارقةَ التي حصلت لأميرِ المؤمنين، حضرةِ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، الذي كشف اللهُ عن بصرِه فرأى الجيشَ الإسلاميَّ في نهاوند وهو على منبرِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في المدينةِ المنورةِ يخطبُ الجمعة، فنادى ساريةَ قائدَ الجيش، وقد كاد يقعُ هو وجنودُه في كمينٍ نصبَه الأعداءُ لهم فصاح محذّراً: "يا ساريةَ الجبلَ، يا ساريةَ الجبلَ"، فسمع ساريةُ النداء والتجأ إلى الجبل، ونجا هو ومن معه.

والقصةُ متواترةٌ مشهورةٌ يرويها الخلفُ عن السلف. وهذا ما يُعرف بالكشفِ ورفعِ حجابِ المسافاتِ الواردِ في قولِ حضرةِ النبيِّ المصطفى صلى الله عليه وسلم: ﴿اتّقوا فراسةَ المؤمنِ فإنّه ينظرُ بنورِ اللهِ عزّ وجلّ﴾. رواه البخاري.

وكما وصلَ الصوتُ بقدرةِ اللهِ تعالى من رجلٍ إلى رجلٍ على هذا البعدِ الشاسعِ إذ جعلَ اللهُ في صوتِه مدداً مدّه من البعدِ مدّاً، فاللهُ سبحانه قادرٌ أن يوصلَ طلبَ الأمدادِ من رجلٍ إلى آخر.

الإمداد يكون بأمر الله وإذنه

وَالحَقُّ أَنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الأُمُورِ، مِنْ تَوَفِّي الأَنْفُسِ وَالحِفْظِ وَكِتَابَةِ الأَعْمَالِ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ، وَخَلْقِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ، وَإِبْرَاءِ الأَكْمَهِ وَالأَبْرَصِ وَإِحْيَاءِ المَوْتَى، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الخَوَارِقِ الَّتِي شَرَحْنَاهَا، وَإِنْ حَصَلَتْ عَلَى أَيْدِي حَضَرَاتِ الأَنْبِيَاءِ وَالمَلائِكَةِ وَالأَوْلِيَاءِ، وَلَكِنَّ الفَاعِلَ الحَقِيقِيَّ وَالمُؤَثِّرَ الحَقِيقِيَّ فِيهَا هُوَ اللهُ تَعَالَى، وَقَدْ أَجْرَى سُبْحَانَهُ هَذِهِ الأَعْمَالَ عَلَى أَيْدِيهِمْ تَسْخِيرًا مِنْهُ، وَإِعَارَةً لَهُمْ، وَإِكْرَامًا لَهُمْ، لِأَنَّهُمُ الدَّاعُونَ إِلَى تَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ، وَفِي هَذَا إِظْهَارٌ لِعَظَمَةِ الخَالِقِ عَلَى يَدِ خَلْقِهِ. فَهَذِهِ الأَفْعَالُ هِيَ مِنْ نَوْعِ الإِمْدَادِ النُّورَانِيِّ وَالعِرْفَانِيِّ، وَمِنْ بَابِ الخَوَارِقِ وَالكَرَامَاتِ يُمِدُّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ إِكْرَامًا لَهُمْ لِيَقُومُوا بِوَاسِطَتِهَا بِمُسَاعَدَةِ المُؤْمِنِينَ بِإِذْنِ اللهِ. وَيَنَالُوا بِهَا أَجْرًا عَظِيمًا وَثَوَابًا كَرِيمًا. فَاللهُ سُبْحَانَهُ غَنِيٌّ عَنْ عِبَادِهِ، مَلائِكَةً كَانُوا أَمْ إِنْسًا أَمْ جَانًّا، وَلَكِنَّهُ شَاءَ هَذِهِ الأُمُورَ وَالأَفْعَالَ لِحِكْمَةٍ هُوَ أَعْلَمُ بِهَا، فَيَجِبُ عَلَيْنَا الإِمْسَاكُ عَنِ الخَوْضِ فِيهَا، وَلا يَجُوزُ لِأَحَدٍ إِنْكَارُ ذَلِكَ لِوُرُودِهِ فِي آيَاتِ الذِّكْرِ الحَكِيمِ الَّتِي ذَكَرْنَا بَعْضَهَا، وَقَدْ سَنَّ اللهُ لِلنَّاسِ العَمَلَ بِالوَسَائِلِ وَالوَسَائِطِ لِقَضَاءِ الحَوَائِجِ، عَلَى أَنْ لا يَكُونَ فِي ذَلِكَ مُخَالَفَةٌ لِلشَّرْعِ الحَنِيفِ، وَلا شَكَّ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَلْيَعْتَبِرِ المَرْءُ بِنَظْرَةِ إِخْوَانِنَا المُسْلِمِينَ فِي البُلْدَانِ الأُخْرَى لِلأُمُورِ، فَإِنَّهُمْ مَهْمَا قِيلَ لَهُمْ عَنْ مُعْجِزَاتِ حَضَرَاتِ الأَنْبِيَاءِ وَكَرَامَاتِ حَضَرَاتِ الأَوْلِيَاءِ، يَقُولُونَ: يُوجَدُ أَعْظَمُ. وَإِذَا سَأَلْتَهُمْ: مَاذَا تَقْصُدُونَ بِقَوْلِكُمْ: يُوجَدُ أَعْظَمُ؟ يُجِيبُونَ: الأَعْظَمُ هُوَ الإِلَهُ العَظِيمُ الَّذِي أَعْطَاهُمُ المَقْدِرَةَ عَلَى فِعْلِ هَذِهِ الأُمُورِ، فَكُلَّمَا ظَهَرَ لَنَا شَيْءٌ عَظِيمٌ نَتَذَكَّرُ أَنَّ عَظَمَةَ اللهِ سُبْحَانَهُ لا تَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ، فَنَقُولُ: يُوجَدُ أَعْظَمُ إِلَى مَا لا نِهَايَةَ.

وَقَالَ أَحَدُ الزُّهَّادِ الصَّالِحِينَ: إِذَا ظَهَرَ لَكَ فِعْلٌ خَارِقٌ مِنْ أَحَدِ الرِّجَالِ الصَّالِحِينَ، فَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ هُوَ المُؤَثِّرُ. وَإِذَا طَلَبَ رَجُلٌ مَدَدًا مِنْ

أَحَدَ ٱلرِّجَالِ ٱلصَّالِحِينَ وَشَعَرَ بِوُصُولِهِ إِلَيْهِ، فَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ جَعَلَ لِهَـٰذَا ٱلرَّجُلِ نُورًا، بِهِ يَفْعَلُ، وَبِهِ يَعْمَلُ، وَبِهِ يُحْسِنُ لِلنَّاسِ مِنْ أَمْدَادِ ٱلْمُحْسِنِ ٱلْعَظِيمِ وَقَدْ يَحْتَجُّ ٱلْبَعْضُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ وَيَسْنُدُونَ ٱعْتِرَاضَهُمْ وَإِنْكَارَهُمْ بِحَدِيثِ حَضْرَةِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ ٱلَّذِي قَالَ فِيهِ: ﴿ ٱحْفَظِ ٱللَّهَ يَحْفَظْكَ، ٱحْفَظِ ٱللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَٱسْأَلِ ٱللَّهَ، وَإِذَا ٱسْتَعَنْتَ فَٱسْتَعِنْ بِٱللَّهِ، وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْأُمَّةَ لَوِ ٱجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ إِلَّا قَدْ كَتَبَهُ ٱللَّهُ لَكَ، وَإِنِ ٱجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ ٱللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ ٱلْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ ٱلصُّحُفُ ﴾ سنن الترمذي ٢٦٦٦.. غَيْرَ أَنَّ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثَ لَا يَدُلُّ عَلَىٰ عَدَمِ جَوَازِ ٱلتَّعَامُلِ مَعَ حَضَرَاتِ ٱلْأَنْبِيَاءِ وَٱلْأَوْلِيَاءِ بِطَلَبِ فُنُونِ ٱلْعِلْمِ ٱلْعِرْفَانِيِّ بِوَاسِطَةِ مَا أَمَدَّهُمُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى ٱلْأَفْضَلِ وَٱلْأَكْمَلِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْأَصْفِيَاءِ ٱلَّذِينَ وَصَلُوا إِلَىٰ دَرَجَةِ كَمَالِ ٱلْإِيمَانِ، وَهُوَ أَنْ يَسْأَلَ أَمْثَالُهُمُ ٱللَّهَ لَا غَيْرَ فِي كُلِّ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي قَدْ تَعْتَرِضُ حَيَاتَهُمْ (وَمَعَ جَوَازِ ٱلِاسْتِغَاثَةِ بِحَضَرَاتِ ٱلْأَنْبِيَاءِ وَٱلْأَوْلِيَاءِ فَمِنَ ٱلْمُسْتَحْسَنِ لِلْعَامَّةِ أَنْ يُفَوِّضُوا أَمْرَهُمْ لِلَّهِ، وَهَـٰذِهِ دَرَجَةُ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ) وَإِلَّا فَمَا مَعْنَى ٱلْحَدِيثِ ٱلْوَارِدِ عَنِ ٱبْنِ ٱلْفِرَاسِيِّ، أَنَّ وَالِدَهُ ٱلْفِرَاسِيَّ وَهُوَ صَحَابِيٌّ كَانَ مُحْتَاجًا لِلْمَالِ فَجَاءَ يَسْأَلُ حَضْرَةَ ٱلنَّبِيِّ ﷺ هَلْ يَسْأَلُ ٱلنَّاسَ مَالًا، وَهُوَ ﷺ يَعْلَمُ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ أَنَّ ٱلرَّزَّاقَ هُوَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، وَإِنَّمَا عَمِلَ بِمَا لَا يُنَافِي ٱلْإِيمَانَ مِنْ تَعَاطِي ٱلْأَسْبَابِ ٱلدُّنْيَوِيَّةِ، فَقَالَ لِرَسُولِ ٱللَّهِ ﷺ: أَسْأَلُ؟ قَالَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ: ﴿ لَا، وَإِنْ كُنْتَ سَائِلًا لَا بُدَّ، فَٱسْأَلِ ٱلصَّالِحِينَ ﴾ مسند الإمام أحمد ٤/٣٣٤.. وَإِنْ كَانَ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثُ قَدْ وَرَدَ فِي مَعْرِضِ ٱلتَّكَلُّمِ عَنْ سُؤَالِ ٱلْمَالِ، فَإِنَّ جَوَابَ حَضْرَةِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ "لَا" يَدُلُّ عَلَى ٱلْأَصْلِ ٱلْوَارِدِ فِي ٱلْحَدِيثِ ٱلْأَوَّلِ، وَهُوَ: "إِذَا سَأَلْتَ فَٱسْأَلِ ٱللَّهَ"، وَهُوَ عَلَىٰ إِطْلَاقِهِ يَقْتَضِي ٱلرِّضَا بِٱلْقَضَاءِ وَٱنْتِظَارَ ٱلرِّزْقِ مِنَ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ. ثُمَّ أَشَارَ حَضْرَةُ ٱلنَّبِيِّ ﷺ إِلَىٰ مَنْ لَمْ يَصِلْ بَعْدُ إِلَىٰ مَقَامِ ٱلتَّسْلِيمِ وَٱلتَّوَكُّلِ، وَأَرْشَدَهُ إِلَى ٱلصَّوَابِ بِقَوْلِهِ ﷺ:

﴿ وَإِنْ كُنْتَ سَائِلًا لَا بُدَّ، فَٱسْأَلِ ٱلصَّالِحِينَ ﴾

فطالبو المدد من حضرات الأنبياء والصالحين لا يدفعهم إلى ذلك إلا اعترافهم بتقصيرهم في أداء ما افترض الله عليهم على الوجه الكامل، وعدم وصولهم لمقامات الإحسان. فطلب الإمداد والمساعدة من الله بواسطة المصطفين الأخيار والأولياء الأبرار، لما لهم من قوة ومقدرة كبيرة بفضل الله على الطاعة والصدق والصفاء، والعبادة والإخلاص والمعرفة بآداب العبودية.

وما هذا إلا اقتداء بما أمر الله به صحابة حضرة النبي ﷺ من طلب استغفار حضرة النبي ﷺ لهم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ (النساء ٦٤). فالآية المباركة ترشدنا إلى أدب السؤال والطلب. فأمر أولاً باستغفارهم لله، ثم استغفار النبي ﷺ لهم، وما ذلك إلا لأن استغفار الرسول ﷺ لهم أفضل وأقرب قبولاً منهم، لما عنده من إخلاص وصفاء قلب وقوة في الطاعة أعظم مما عند السائل المستغفر. فالسائل يسأل ربه أولاً، ومن ثم يطلب المدد ممن هو أرفع منه، اعترافاً بتقصيره وبأنه ليس أهلاً لإجابة دعائه. وبهذا يكون ملتزماً بالكتاب والسنة حالاً ومقالاً. فقول القائل: "مدد يا رسول الله"، أي استغفر لي وعلمني مما علمك الله بإذن الله. وقوله: "مدد يا أولياء الله"، أي يطلب منهم التوسط له عند حضرة النبي ﷺ بطلب الشفاعة والمغفرة والإحسان.

فكل إنسان مبتدئ ومقصر في أمور التزكية والدين يحتاج إلى علم من سبقه في هذا المجال، ومن له معرفة في كيفية كسب مدد الله تعالى وعندما يصبح الإنسان ممن تزكت نفسه ووصل إلى أسرار قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر ٦٠) فله عندها ألا يطلب المدد إلا من الله سبحانه.

ومن جهة أخرى، فإننا نسأل كل من يعترض على طلب المدد والواسطة والوسيلة، لماذا يذهب للتداوي عند الطبيب ويستغيث به ويقول:

يا طبيبُ خلّصني من الآمي، فهل يكفر قائلٌ هذا لأنه يستغيث بإنسان ليمدّه بالشفاء بواسطة العقاقير؟ بالطبع لا، لأنّ الله جعل الوسائط والأسباب بين خلقه. ولا نقول له لماذا لم تتعالج بكتاب الله تعالى، لأنّ الجواب سيكون: لأنه جاهلٌ بمراهم الكتاب، وعاجزٌ عن الكشف عن أسرار الآيات، فيعمل عندها بالظاهر الممكن الذي جاءت به السنّة النبوية الشريفة، ألا وهو: ﴿ تداووا عباد الله فإنّ الله تعالى لم يضع داءً إلّا وضع له دواءً غير داءٍ واحدٍ الهرم ﴾ -رواه الإمام أحمد، الفتح الكبير، بسند-.

الهرم: أي كبر السن، وقيل: الموت. ومن جهة أخرى، فمن المعروف أنّ الله عزّ وجلّ هو المعطي المانع، فهو الرزّاق الذي يرزق الناس ما قدّره لهم من مالٍ وبنين. قال الله تعالى: ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ ولكننا مع ذلك نرى بعض الناس يجدّون ويسعون لكسب الأرزاق فيتعاملون فيما بينهم ويتداولون المال والأرزاق. وكذلك المرأة العاقر تذهب إلى المعالجة عند الأطباء عسى أن يرزقها الله ولداً، بواسطة العقاقير والأدوية، إن جعل الله فيها الشفاء والتأثير. فالعمل بالأسباب لا ينافي كون الله سبحانه هو رازق العباد بالأموال والبنين.

وقد ظهر لنا من خلال آيات الله تعالى أنه بحكمته سبحانه قد سخّر الخلائق بعضها لبعض، وليفيد بعضها بعضاً بإذنه تعالى، فكلّ نوع يفيد نوعه. فالشمس تعكس نورها على القمر في الليل، والقمر يعكس ضوءه على الأرض، ويقال لهذه الظاهرة: "مددٌ انعكاسيٌّ".

فمن هنا نرى بأنّ الانسان يستفيد من هذه الأنوار المخلوقة بوسائط ووسائل. فالله عزّ وجلّ قادرٌ أن ينوّر الأرض بدون شمسٍ ولا قمر، وهو ليس بحاجة لهما ولا لغيرهما من مخلوقاته. قال الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ -يونس ٥-. فالشمس والقمر ليسا أعظم من رسول الله ﷺ الذي وهبه ربّه عزّ وجلّ قوة أعظم من الشمس والقمر، يضيء بسراج نور قلبه عالم القلوب بإذن ربه، لقوله

تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ - الأحزاب ٤٥/٤٦ -.

فطلب المريد المدد من شيخه ما هو إلا انعكاس قلب الولي الكامل الذي هو أفضل عند الله من الشمس والقمر، على قلب المريد. فما وجه المخالفة الشرعية والعقلية في ذلك؟ وإذا ثبت الاستمداد بين الجمادات فيما بينها، فكيف ينتفي بين المخلوقات البشرية؟ وهل جميع من جاء على وجه الأرض من أولياء عظماء علموا الناس الشريعة المطهرة، وفتحوا أبواب الاستمداد والوسائط والوسائل على مصراعيها كما جاءت على ذكره الأحاديث الشريفة، فهل كلهم على باطل وجهل بدين الله وتعاليم الإسلام، والمنكر المعاند هو وحده العالم والمحق العارف بالأحكام؟...

ولننظر إلى المقدمة التي أوردها خاتم المحققين، الإمام العلامة الفقيه، محمد أمين أفندي المشهور بابن عابدين في رسالته: «الفوائد المخصصة بأحكام كي الحمصة»، حيث يقول: «... وقد رأيت فيها رسالتين، الأولى لعمدة المحققين، فقيه النفس، أبي الإخلاص، الشيخ حسن الشرنبلالي الوفائي رحمه الله تعالى وشكر سعيه. والثانية لحضرة الأستاذ، من جمع بين علمي الظاهر والباطن، مرشد الطالبين ومربي السالكين، سيدي عبد الغني النابلسي قدس الله تعالى سره، وأعاد علينا من بركاته، آمين. فأردت أن أذكر حاصل ما في هاتين الرسالتين... مستعينًا بالله تعالى، مستمدًا من مدد هذين الإمامين الجليلين...» أ.هـ. انتهى

فهذا الإمام الجليل، ابن عابدين، الذي لا يخفى على أحد من طالبي العلم الشريف، مكانته العلمية، يستمد من أمداد الصالحين، وهو رضي الله عنه يعلم يقينًا أن الذي أمد هؤلاء الأكارم إنما هو الله سبحانه، وهو يطلب مدد ربه بواسطة صلاح وتقوى هؤلاء الأكارم.

وقال المحدث الورع الفقيه، الإمام ابن أبي جمرة الأندلسي رضي الله عنه في معرض شرحه لحديث الإفك: «... ولهذا المعنى جعل عليه السلام لقيا المؤمن

لِأَخِيهِ ٱلْمُؤْمِنِ بِبَشَاشَةِ ٱلْوَجْهِ صَدَقَةٌ، لِأَنَّ ٱلْمُؤْمِنَ يَسْتَمِدُّ مِنْ أَخِيهِ بِحَسَبِ مَا يَظْهَرُ عَلَى ظَاهِرِهِ، كَمَا أَنَّ أَهْلَ ٱلْبَوَاطِنِ يَسْتَمِدُّ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ بِحَسَبِ مَا يَكُونُ فِي بَوَاطِنِهِمْ... بهجة النفوس. وَٱلْأَمْثِلَةُ عَلَى ذَٰلِكَ تَطُولُ.

ٱلْخَاتِمَةُ

وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ لَنَا جَوَازُ ٱلِاسْتِمْدَادِ مِنْ حَضَرَاتِ ٱلْأَوْلِيَاءِ (أي طلب المدد منهم) شَرْطَ أَنْ يَعْتَقِدَ ٱلْمَرْءُ عِنْدَ ٱلطَّلَبِ أَنَّ مَا مِنْ شَيْءٍ يَجْرِي فِي هَٰذَا ٱلْكَوْنِ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ سُبْحَانَهُ وَمَشِيئَتِهِ وَعِلْمِهِ. وَإِنَّ ٱلْوَلِيَّ إِذَا أَمَدَّ ٱلطَّالِبِينَ، فَإِنَّمَا يُمِدُّهُمْ مِمَّا أَمَدَّهُ ٱللَّهُ بِهِ، فَهُوَ لَا يُفِيدُ ٱلنَّاسَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ، إِنَّمَا ٱلضَّارُّ وَٱلنَّافِعُ فِي ٱلْحَقِيقَةِ هُوَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، وَٱلْمَدَدُ مَا هُوَ إِلَّا تَوَسُّلٌ بِٱلصَّالِحِينَ وَٱسْتِعَانَةٌ بِعُلُومِهِمْ وَمَكَانَتِهِمْ عِنْدَ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ. وَمِنَ ٱلْأَمْثِلَةِ ٱلْبَسِيطَةِ عَلَىٰ ذَٰلِكَ مَا جَرَىٰ لِأَحَدِ ٱلذَّاكِرِينَ مَعَ وَلِيٍّ مِنْ أَوْلِيَاءِ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ، ٱسْمُهُ ٱلشَّيْخُ عُثْمَانُ سِرَاجُ ٱلدِّينِ، فَقَدْ قَالَ ٱلذَّاكِرُ لِمُرْشِدِهِ: يَا مَوْلَانَا أَصْبَحَ حَالِي ثَقِيلًا جِدًّا، وَٱلْأَمْدَادُ مِنْ رَبِّي أَصْبَحَتْ قَلِيلَةً، وَأَنَا أَطْلُبُ دُعَاءَكُمْ. فَكَانَ جَوَابُهُ ﵀: تَعَالَ إِلَيْنَا حَتَّىٰ نُعَلِّمَكُمْ أُمُورًا تَعْمَلُونَ بِهَا مُدَّةَ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ، ثُمَّ نَنْظُرُ بَعْدَهَا مَا يُجْرِيهِ ٱللَّهُ عَلَىٰ قَلْبِكُمْ فَنُعَلِّمُكُمْ بِهِ لِتَسْتَعِينُوا بِهِ لِلْخَلَاصِ مِنْ ثِقَلِ حَالِكُمْ. وَهَٰذَا مِنَ ٱلْأَمْثِلَةِ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ ٱلشَّيْخَ يُمِدُّ ٱلْمُرِيدَ بِمَعْرِفَةِ رَبِّهِ مِنْ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ. فَنَتَمَنَّىٰ مِمَّنْ يَعْتَرِضُ عَلَى ٱلْإِمْدَادِ بِوَاسِطَةِ ٱلْكُمَّلِ مِنَ ٱلرِّجَالِ، وَيَدَّعِي أَنَّهُ لَيْسَ بِحَاجَةٍ لِعِلْمِ نَبِيٍّ أَوْ وَلِيٍّ، وَأَنَّهُ مِمَّنْ تَزَكَّتْ نَفْسُهُ وَوَصَلَتْ إِلَىٰ مَدَارِجِ ٱلْفَلَاحِ فَنُذَكِّرُهُ بِقَوْلِ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ النجم. وَإِنْ صَحَّ ٱدِّعَاؤُهُ فَلْيُخْبِرْنَا بِشَيْءٍ، وَلَوْ قَلِيلٍ، مِمَّا أَفَاضَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْبَرَكَاتِ وَٱلْأَسْرَارِ وَٱلرَّحَمَاتِ. وَإِلَّا، فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ بِأَمَسِّ ٱلْحَاجَةِ لِمُسَاعَدَةِ ٱلصَّالِحِينَ لِكَسْبِ رِضَا رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ.

وَفِي ٱلْخِتَامِ، مِسْكُ ٱلْكَلَامِ، نَقُولُ لِلْخَوَاصِّ وَٱلْعَوَامِّ: إِنَّ فِي ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ خَيْرَ تَوْضِيحٍ لِدُرَرِ ٱلْأَحْكَامِ. فَجَمِيعُ ٱلْفَوَائِدِ ٱلَّتِي ظَهَرَتْ عَلَىٰ أَيْدِي حَضَرَاتِ

الأنبياء والأولياء من عجائب المعجزات وغرائب الكرامات، ما هي إلا إشارات على نعم المنعم العظيم سبحانه، التي أظهرها على يد من أنعم عليهم برحماته من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وإن إمداد الله لرسله يكون حسب ما يريده الله ويشاء، وإمداد الرسل لباقي العباد يكون أيضا حسب ما يريده الله ويشاء.

هذا ولم ترد آية أو حديث بتكفير من يستمد من الأنبياء والصالحين الاستمداد الشرعي الصحيح. ونحن بدورنا نقول للتائهين ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ -البقرة ١١١-
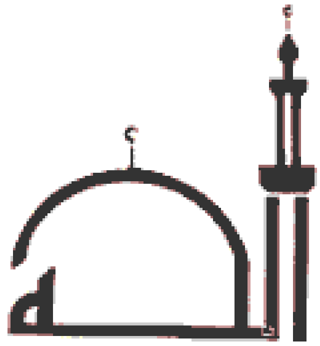
هذا ونرجو من المولى عز وجل أن يأخذ بأيدينا جميعا لخدمة الإسلام والمسلمين، ولبناء صرح الإسلام والمحافظة عليه ومواجهة جميع الأفكار التي تحاول النيل من الإسلام بإيجاد روح العصبية والتفرقة بين أبنائه. فنسأل الله تعالى أن يوفقنا لتوحيد الكلمة ورص الصفوف ورد التائهين إلى مائدة الحق واليقين، لأن في التفرقة ضعف المسلمين وعندها يكونون أهدافا سهلة لسهام أعداء الدين، فقد قال حضرة النبي ﷺ: ﴿ إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية وإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة ﴾ -مسند الإمام أحمد ٥ص٢٣٢-. والله سبحانه من وراء القصد وهو يهدي إلى سواء السبيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.